محمد بن إدريس الشافعي
مفكراً تربوياً

أ. م. د. عبد الكريم محسن الزهيري
قسم العلوم التربوية والنفسية / كلية التربية / جامعة الأنبار

محمد بن إدريس الشافعي

مولده ونسبه:

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن آد بن آدد.

ولد بغزة في فلسطين عام ١٥٠هـ، يوم وفاة الإمام أبي حنيفة النعمان، وقال الناس مات إمام وولد إمام، وأمه من الآزد في اليمن، وقد حمل إلى مكة وهو أبن سنتين. وتوفي الشافعي بالقرافة الصغرى بتربة أولاد بني زهرة التي سميت فيما بعد بتربة الشافعي (٨:ص٢٨١).

نشأته العلمية:

تعلم قراءة وحفظ القرآن الكريم ثم ذهب إلى مكة لدراسة النحو والشعر وقد نصحه الزبير ابن بكار بطلب الحديث والفقه، حيث ذهب إلى المدينة وتتلمذ على يد مالك بن أنس، فلم يترك عنده إلا القليل وكذلك جمع كل علم عند مشايخ المدينة، ثم رحل إلى العراق ودرس على يد محمد بن الحسن فحمل عنه، ثم عاد إلى المدينة بعد سنتين ثم عاد إلى مكة وكرم من قبل ابن داود بعشرة الآف درهم.

لقد كان ذكي جداً يسمع ما يقوله المعلم فيحفظه، فقال: (كنت أسمع المعلم يلقن الصبيان الآية فأحفظها أنا) وكذلك أحفظ الإملاء قبل أن يفرغ المعلم منه.

كان يخرج من الكتّاب ويبحث عن الخزف والدفوف وكرب النخيل وأكتاف الجمال لكي يدون عليها ما حفظه، حتى كان لامه حباب فملأها أكتافاً وخزفاً وكرباً وهي مملوءة بما حفظ، ثم ذهب إلى قبيلة هذيل في البادية لكي يتعلم كلامها وطباعها لكونها كانت أفصح العرب، حيث مكث فيها سبع عشرة سنة، يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم، ثم عاد إلى مكة وهو متمكن من الشعر والأدب والأخبار وأيام العرب (٣:ص٨٦). وعندما التقى بأحد أبناء عمومته نصحه بأنك تمتلك كل هذه المواهب ولكن تحتاج إلى الفقه وان تذهب إلى مالك بن انس سيد المسلمين، وقبل أن ارحل إليه درست الموطأ وحفظته في تسع ليالي، فأخذت كتاباً من والي مكة إلى والي المدينة، والى مالك بن انس، وذهب إلى والي المدينة

وقدم الكتاب وعند قراءته قال والي المدينة (إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك ابن انس، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه) فقال الشافعي: (أصلح الله الأمير . إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر) قال الأمير: هيهات فأذهبنا بعد أن أصابنا من تراب العقيق ما أصابنا وعندما وصلنا طرق احدهم الباب فخرجت جارية سوداء، فقال لها الأمير قولي لمولاكي باني في الباب، فعادت الجارية وهي تقول: (مولاي يقرئك السلام ويقول: (إن كانت مسالة فأرقعها في رقعة يخرج إليك الجواب وان كان حديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف) فقال الأمير: (قولي له أن معي كتاب من والي مكة إليه في حاجة مهمة) فسمح لنا بالدخول وقد دخل علينا وهو شيخ طويل مسنون اللحية تعلوه المهابة والوقار، فجلس وهو متطلس، فقدم له الوالي الكتاب وبعد الانتهاء منه قال: (سبحان الله أوصار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يؤخذ بالرسائل) فلم يتكلم الوالي ولكن تقدم الشافعي وقال: (إني رجل مطلبي ومن حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إليه بفراسة، وقال ما اسمك ؟ قلت محمد، قال اتق الله واجتنب المعاصي، فقد سيكون لك شأن، فعد غداً وأجلب معك من يقرأ لك، فقال الشافعي أنا أقوم بالقراءة، وعندما قرأت أعجبته القراءة فطلب الاستمرار وأعجبه الإعراب وبقى معه في المدينة حتى توفي رحمه الله، بعدها ذهب إلى اليمن ثم جاء أمر من الخليفة هارون الرشيد يوصي بحضور والي اليمن وان تجلب معك الشافعي، فعندما دخل الوفد على هارون الرشيد كان عنده محمد بن الحسن، فسأله الشافعي عن علمه بالقران، أجاب عن أي معلومة تسأل ! فقد حفظته ووعيته وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاريه ووحشيه وانسبه وما خوطب به العام يراد به الخاص، وما خوطب به الخاص ويراد به العام. وكيف علمك بالغيوم ؟ قال الشافعي لا اعرف منها البريء من البحري والسهلي والجبلي والفيلق والمصبح وما تحب معرفته، فسأله وكيف علمك بأنساب العرب ؟ قال لا اعرف انساب اللئام وانساب الكرام ونسبي نسب أمير المؤمنين فقال الخليفة لقد ادعيت علماً فهل من موعظة ؟ فذكر موعظة لطاووس اليماني فوعظه بها فبكى وأمر له بخمسين ألف وحمله على فرس وركبت من بين يديه وعندما وصل إلى الباب قد فرقها على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه، فلحق به (هرشمة) وكان صاحب أمير المؤمنين هارون الرشيد فأراد أن يعطيه فرفضها الشافعي، حيث قال انه لا يأخذ العطية ممن هم دونه وإنما يأخذها ممن هم فوقه، ونسخ كتب محمد بن الحسن جميعاً (١٧ :ص١٢٨٠).

مجلسه العلمي:

كان يجلس في حلقته بعد صلاة الصبح فيأتي إليه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس جاء أهل الحديث وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس فجاء من يذاكر ويتعلم، فإذا ارتفع الضحى جاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر حتى إذا قرب انتصاف النهار ثم ينصرف.

كان عارفاً بغوامض علم الحديث وعارفاً بأسراره كما أن أصحاب الفقه يخرجون منه وهم مذعنون وكذلك أصحاب الأدب والشعر فيبين لهم معانيه حيث كان يحفظ عشرة ألاف بيت لهذيل إعراباً ومعانيها، كان عارف بالتواريخ، كان هدفه إرضاء الله سبحانه وتعالى.

وقد طلب من الشافعي أن يفتي وهو في عمر ثمان عشرة سنة (أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي) (٧: ص١٢٣). وكان من أفضل الذين يردون على أصحاب الرأي. (وقد طلب ابن حنبل من أبا يعقوب جالس هذا الرجل) فقال أبا يعقوب أجالسه وسنه قرب من سننا واترك ابن عينية والمقري، فقال جالسه لكونه افقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

كان يستيقظ من نومه وينهض من فراشه عندما يتذكر شيء حتى في منتصف الليل فينير مصباحه ليدون هذه المعلومة.

كان سخي كريم النفس لا يحب الشهرة فقد روي عن الربيع بن سليمان انه عندما تزوج كان مهر زوجته (٣٠) دينار ولم يعطيها سوى (٦) دنانير فأعطاه الشافعي (٢٤) دينار لإكمال مهرها.

عندما حج أحمد بن حنبل وكان معه الفضل البزاز فعندما تنتهي صلاة الصبح يبحثون عن إمام يستمعون إلى حديثه فكان أحمد بن حنبل يجلس عند مجلس الشافعي لسماعه فيحاججه الفضل البزاز تترك كبار المحدثين وتجلس عند هذا الشاب فيقول ابن حنبل (إن فاتك حديث بعلو تجده بنزول . لا يضرك في دينك ولا في عقلك، وان فاتك أمر هذا الفتى، أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة ما رأيت أحداً افقه في كتاب الله سبحانه من هذا الفتى القريشي.

كان الشافعي لا يحب أن يخطيء أحداً ويرغب أن يكون علمه في قلب كل مسلم وبدون أن ينسب إليه ولا يحمدوني عليه.

حيث أكد على أهمية العقل فهو الموصل إلى قول الحق، وكل المناظرات التي حدثت بينه وبين من ناظروه كان هدفها النصيحة.

كان يختم القرآن الكريم في شهر رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة، كان لا يحب أن يشتبع جوفه فقد قال: (ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة واحدة طرحتها لان الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة).

كان يجيد الرماية فيرمي عشراً تصيب عشرة (٦:ص١٩٣١).

كان سخي بما يملك وكان فصيح اللسان في قراءة القرآن الكريم وكان عربي النفس واللسان أميناً عادلاً زاهداً ورعاً حسن السيرة.

وقد مرض الشافعي فقال: (أصبحت عن الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولكأس المنية شارباً وعلى الله جل ذكره وارداً ولا والله ما ادري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو النار فاعزيها) ثم بكى وانشد:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سُلّما.

وتوفي هذا الإمام الجليل ليلة الجمعة آخر يوم من شهر رجب عام ٢٠٤هـ، ودفن غربي الخندق في مقابر قريش، وقد ذكر إن سبب موته انه أصيب بداء (البواسير) حيث اشتد نزفه في حالات نومه وجلوسه وعمله حتى أدى إلى وفاته (١١: ص٧٩).

كان متمكن من علوم اللغة والأدب وكان يكتب الشعر وينظمه في المواعظ والحكم وقد كتب الكثير.

وكان يجلس وكانت حلقته عامرة بطلابه فقد كانت دروسه متنوعة وتبدأ منذ انتهاء صلاة الصبح حتى منتصف النهار فينتقل من علوم الحديث إلى مشاهدة المناظرات وقد يدرس اللغة والعروض والشعر والنحو، بعدها يقوم بتدريس العلوم المختلفة.

كان الشافعي رحمه الله يقّسم الليل إلى ثلاثة أقسام ولكل جزء منها له فيه يؤدي واجباً، فالجزء الأول مخصص للكتابة وتدوين ما يرغب تدوينه من الأحكام والأحاديث وغيرها من أمور تخص الدين.

أما الجزء الثاني فكان مخصص للعبادة وتأدية الصلاة والاستغفار.

أما الجزء الثالث والأخير فهو مخصص للنوم والراحة لكي يستيقظ مبكراً لتأدية صلاة الفجر واستمراره في تقديم الدروس العلمية الخاصة بالعقيدة بكل أشكالها حتى منتصف النهار.

شهادة العلماء والفقهاء له:

قال أحمد بن حنبل: (كان الشافعي من أفصح الناس، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحاً).

أبو عبيد القاسم بن سلام قال: (كان الشافعي ممن يؤخذ عنه اللغة أو من أهل اللغة).

الربيع بن سليمان قال بحق الشافعي: (كان الشافعي عربي النفس وعربي اللسان).

وقال الجاحظ: (نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم، فلم أر أحسن تأليفاً من المطلبي (الشافعي) كان كلامه ينظم دراً إلى در).

وقال الإمام أحمد: (ما مس أحد محبرة ولا قلماً إلا والشافعي في عنقه منة).

وقال الذهبي: (كان حافظاً للحديث بصيراً بعلله، لا يقبل منه إلا ما ثبت عنده، ولو طال عمره لازداد منه).

وقال عبد الملك بن هشام النحوي: (الشافعي ممن تأخذ عنه اللغة).

وقال أحمد بن أبي سيرج: (ما رأيت أحداً أفوه، ولا أنطق من الشافعي). (١٨: ص٩٨).

شيوخه:

لقد تلقى هذا العالم الجليل والمفكر الإسلامي علومه المختلفة على أيدي مشايخ وعلماء كثر اختلفوا وتباينوا في علومهم وأماكن عقد حلقاتهم الدراسية. فقد درس من العلوم الكثير منها (علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية) وغيرها من العلوم الأخرى وهذه العلوم تلقاها على أيدي علماء إجلاء في بلدان مختلفة فقد درس في مكة على يد (سفيان بن عيينه، داود العطار، عبد الحميد أبي داود، مسلم الزغبي، سعيد القداح)، أما في المدينة المنورة فقد تعلم على يد (إبراهيم الأنصاري، إبراهيم الاسامي، عبد الله الصائغ، مالك بن انس).

أما في العراق فقد تلمذ على يد المشايخ البصريين والمشايخ الكوفيين، ومنهم (حماد بن أسامة الكوفي، وكيع بن الجراح الكوفي، عبد الوهاب بن عبد الحميد البصري، إسماعيل بن عليه البصري).

أما في اليمن فقد درس النحو والشعر على يد المشايخ الكرام (هشام بن يوسف، يحيى بن حسان، مطرف بن مازن، عمر بن أبي سلمه) وعمل في علم الفراسة حتى برع فيها (١٩: ص١١٠).

تلاميذه:

بما إن هذا العالم الجليل انتشر صيته لما يتمتع به من سمات وخصائص عديدة جعلت حلقته ملئى بالسامعين، فقد كان يذهب إلى حلقته الكثير لسماع قراءته التي كانت بخشوع وتدبر علاوة على عذوبة وفصاحة لسانه فقد كان يبكي الحضور ومن تلاميذه في بلاد مكة وبغداد ومصر (موسى بن أبي الجارود، أبو بكر محمد بن إدريس، أبو بكر الحميدي، إبراهيم بن محمد بن العباس، أبو ثور الكلبي، احمد بن محمد الأشعري، الحسن الزعفراني، الحسن الكرابيي، إسماعيل المزني، محمد الحكم، الربيع الجيزي، أحمد بن خالد الخلاني، احمد بن محمد بن سعيد الصيرفي).

ويعد من الأبرز من تلاميذه الإمام الشافعي أحمد بن حنبل، الذي كان يشيد بعلم الشافعي واعتبره الإمام الأعلم في زمانه، وكذلك الحسن بن محمد بن الصباح البغدادي، الربيع بن سليمان المرادي، يوسف بن يحيى البوطي، يونس بن عبد الأعلى، إسحاق بن راهويه (٢: ص١٧).

كتبه ومؤلفاته:

قدر المختصون المؤلفات والكتب التي كتبها أو كتبها تلاميذه وقسم منها كانت على شكل أبواب تخص الجوانب الفقهية واللغة والأدب والشعر أو ما يخص الأصول والتفسير، وتقدر بأكثر من مائة مؤلف، وقد سميت قسم منها بالكتب القديمة أو التراثية وهي التي كتبت والفت في مكة وبغداد والتي كتبت وألفت في مصر تعد هي الحديثة والجديدة) (٤: ص٢٥٠).

ومن هذه المؤلفات:

يعد مؤلف (الأم) من ابرز مؤلفاته التي رواه عنه الربيع بن سليمان المرادي والذي تضمن الأصول والفروع واللغة والحديث والتفسير، كما احتوى على الأحاديث وآثار السلف الصالح وفقههم.

كما يعد كتابه (الرسالة) من المؤلفات الأساسية التي تحدث فيها عن أصول الفقه.

أما بخصوص كتابه (الحجة) الذي صنفه وهو في العراق وقد روي عنه من قبل تلاميذه وهناك السنن المأثورة الذي تضمن الأحاديث في الكثير من أبواب الفقه الإسلامي.

وكتابه (المسند) الذي جمع من قبل تلميذه الربيع بن سليمان المرادي.

أما كتبه ومؤلفاته الأخرى والتي تضم كتب عديدة منها (الإملاء، الامالي، جماع العلم، وصية الشافعي، الفقه الأكبر، الأشعار للشافعي، أصول الدين، جامع المرني الكبير والصغير، اختلاف أهل العراق، أبطال الاستحسان، أحكام القرآن، مسائل في الفقه، الوصايا الكبرى، مسائل السنة، مختصر الربيع والبويطي).

كان يؤكد الشافعي على رضا الناس علماً بأنها غاية لا تدرك فقد قال: (من تعلم القرآن جلّ في عيون الناس، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم النحو هيب، ومن تعلم العربية رّق طبعه، ومن تعلم الحساب جلّ رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره، ومن لم يضر نفسه لم ينفع علمه وملاك ذلك كله التقوى) (٥: ص١٢٨).

وأكد على تعلم اللغة العربية للعرب وغير العرب، وذلك لتصميمه بان لسان العرب يجب أن يكون متقدماً على كل لسان لأنه لسان القرآن الكريم ولسان رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ولا يكون لسان المسلمين تابعاً لأي لسان، بل يجب أن يكون كل لسان تابعاً إلى اللسان العربي والقرآني (١٥: ص٢٢٥)، حتى عقد الزواج لا يجوز إلا باللغة العربية، أما من يرغب في تفسير القرآن الكريم يجب أن يكون عالماً ومتمكن من اللغة العربية (١٤:ص١٤١).

وقد تحدث عنه الكثير فقد كان يجيد العربية ولم يلحن أبداً، بل كان حجه في اللغة، فكانت مصطلحاته وألفاظه تعبر عن فن ودراية بذلك.

كان عارفاً بأسرار النحو واختلاف الأوجه الإعرابية والتمييز واختيار ما يراه مناسباً.

كان الشافعي نحوياً مميزاً وهذا ما لوحظ من خلال كتبه وأقواله، علاوة على امتلاكه اللغة القوية وفصاحته في الكلام ومعرفته بأسرار النحو واختلاف الأوجه الإعرابية والتمييز وكيف يختار النصوص والعبارات بما يراه مناسباً.

كان الشافعي يتمتع بكم واسعاً من الثقافة العامة وخاصة في علوم اللغة العربية، فلديه الكثير من الشعر والنثر وبلاغته المعهودة وفصاحته المعروفة في القراءات القرآنية وتمكنه الواضح في النحو والصرف.

فقد كان يؤيد آراء بعض اللغويين في مسائل لغوية أو قد يختلف معهم في مسالة أخرى، أو قد يتخذ اتجاه آخر لم يتطرق إليه احد قبله وهذا يدل على سعة فقهه العلمي وبصيرته بعيدة المدى.

وهو حجة في اللغة لفصاحته ومعرفته بتفاصيل اللغة، ولم يتعرض إلى شيءً قد اخطأ فيه، واعد اللغة العربية هي الأم، علماً بأنه قد درس الكثير من لهجات العرب.

ولذلك تحدث عنه الكثير من العلماء والمفكرين والأدباء، فالربيع بن سليمان قال: (سمعت عبد الملك بن هشام النحوي يقول (الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة (١٠: ص١٠١).

وقال أحمد بن سريح (ما رأيت أحداً أفوه ولا انطق من الشافعي)، كما تحدث عنه نقلاً عن يحيى بن هشام (طالت مجالستنا لمحمد بن إدريس الشافعي فما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها) (٥: ص٩٢).

أما الخطيب البغدادي، فقد روي بسنده عن أبي ثور قوله: (من زعم انه على رأي مثل محمد بن إدريس الشافعي في عمله وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب) (٦: ص١٥٢).

وعلى الرغم من تعدد اللهجات فان للشافعي لغة واحدة يدرس بها ويناقش بها ويناظر بها (١٧: ص١١٣).

القضاء والقدر:

كان مؤمن بقضاء الله وقدره، وهو يقول كلما اشتدت الأمور لابد أن تفرج فهو متفائل، ونظرته إلى أصعب الأمور بشكل متواضع وغير متبالي لما يحدث لكونه يؤمن بالقضاء والقدر، وعلى الإنسان ما دام يعيش على وجه هذه الأرض لابد من تقديم ما لديه من علوم إلى الناس لتبصيرهم بأهمية القضاء والقدر وان الإنسان ما هو إلا خليفة الله في الأرض وعليه أن يخدم ويساهم في تطوير كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى على سطح الكرة الأرضية، وان لا يجزع مما يقع عليه من المصائب والمشاكل التي يواجهها.

إذن كان يؤمن بالقدر خيره وشره من الله فمقياس الخير والشر مرتبط بإرادة الله ومشيئته وهذا يعني أن المعايير الخلقية وما يتعلق بها من أحكام إنما تنحصر فيما هو حلال أو حرام في ضوء الأحكام الشرعية، فهو اقرب إلى الجبر منه إلى الاختيار، والى التسيير منه إلى التخيير، بل أن أخباره لتدل على إعراضه الدائم عن القدرية، الذين يرون إن الإنسان مخير في تصرفاته وأعماله (٩: ص١٠٩).

فهو يؤمن بالجبرية في تفسير كثير مما يتصل بالإنسان من خير و شر، وعلى ضوء الجبرية تمخض تقسيم المجتمع إلى طبقات، فمن الناس من هو شقي ومنهم من هو سعيد، لا لما يمتلك من مواهب ولا

لما يستثمر من ملكات، وإنما هي مشيئة الله فيقول: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) (١٦:ص١٦٨).

حسن الخلق والتواضع:

كان الشافعي حسن الأخلاق، متواضعاً لا يحب أن يخرج وهو في ملابس الخلفاء والعلماء وكان لا يرغب أن يقف على أبواب السلاطين والأمراء، بل كان يرفض الهدايا والمنح التي ترسل إليه من الخلفاء والأمراء ولكن كان يتصدق بها على الفقراء والمعتازين.

كان متواضعاً في أثناء المناظرات التي تحدث بينه وبين أي شخص في مجالات اللغة أو الفقه أو الشعر، وكان هدفه هو الإصلاح وعدم الطعن أو الاستسخار من قيمة الآخرين، فهو رجل يعد من الفقهاء وسمات الفقيه أن يكون عادلاً ومتواضعاً بل مقنعاً في أثناء المناظرات، وهو يتقبل من يتحدث عنه مهما كان ذلك النقد وعلى الرغم من عزة نفسي إلا إني لا أرد على من يتفوه عني مهما كان، وهو يهدف دائماً إلى فائدة الآخرين وتقديم ما لديه إلى الآخرين وان لا نترك أحبتنا كالأشخاص الجياع من دون تقديم ما لديه من طعام، فهو لا يرد على من كانت أفكاره ومعتقداته غير متطابقة مع فكر الشافعي بل يتجاهله ويتركه في شئنه فسمة العلماء هو التواضع لكونه يمتلك عقلاً نيراً لكي يقنع الآخرين بأفكاره وتطلعاته الفكرية وعليه فالعالم كلما ازداد علمه عليه أن يزداد تواضعاً.

لقد رسمت الشريعة الإسلامية حدوداً للفضائل، ودعت إلى التحلي بالقيم التعبدية والأخلاقية، فيقول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٤: ص٣٨١).

لقد عّدلت الشريعة الإسلامية عن تفسير الأخلاق، وضبط كل خلق بضوابط محكمة مانعة، وما تحسبها عدلت عن هذا إلا والذي فعلته هو الاوفق والاجرى في باب التربية الحكيمة الناجحة، حيث أن للشريعة مقاصد تهدف إليها وتدعوا لها وليست استعراضاً للمجادلات الفلسفية والتصورات المنطقية، من هنا كان القرآن الكريم كتاب تربية وتقويم ولمن يكن كتاب علم وفلسفة.

لقد كان يؤكد على ضرورة تعلم المسلم ما عليه من فروض وواجبات دينية وهذا دليل على اعتراف وإقرار بما للإنسان من اختيار في امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

لقد كان سخي وكريم النفس مترفعاً عن التكسب على عتبات الولاة والخلفاء أو إراقة ماء الوجه عليها من خلال المديح المتصنع، فقد كان يعبر من خلال سلوكه وأخلاقيته عن الشخصية الواقعية، التي تستمد مقوماتهم من الإسلام في التعامل، فقد كرّس كل طاقاته العلمية والفكرية لخدمة الإسلام، فقد كانت عباراته قصيرة وتتحدث عن فكرة محدودة لا يحب الإسراف والإطالة، فقد كانت كتاباته تمثل مجموعات متجانسة فكرياً وتعبر عن سلوك ومنهج حياتي واضح المعالم، فينتقي كلماته الفصيحة مبتعداً عن الغريب

منها وعن العامية، فقد ترك الحرية لإرادة الإنسان وتحركه في حدودها، وهذا بين من خلال ما اثر عنه من رأيه بحقيقة الإيمان بقوله: (الإيمان تصديق وعمل) (٢: ص١٤٩).

وكان يحتج لذلك، ويدعوا إليه، فان كل الإيمان كذلك فهو يزيد وينقص بزيادة العمل ونقصه، وهو ينيط المسؤولية بالإنسان، من هنا تأتي العادلة في الثواب والعقاب.

أهمية العلم:

قال تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (الأنعام/١٠٩)، (فيشعرهم) تعطي معنى الإدراك الذي يرتبط بالشعور ويفيد المعرفة، وشعر الإنسان أي علم الإنسان، وليت شعري، أي ليت علمي، لكن المفهوم الغربي الحديث لعلاقة العلم بالشعر فهما متناقضان، فالشعر يعرّف بأنه نقيض العلم لان غرضه المباشر المتعة لا الحقيقة، وقد عرّفه بعضهم (الشعر) بأنه نغمة المعرفة وروحها الرفيعة، وهو التعبير المتحمس الذي يكتسي به وجه العلم كله.

لكن العلم الذي ينهل منه الشافعي ويدعو إليه فان دعائمه التي يقوم عليها مبنية على التقوى وعلى علوم الشريعة والفقه المستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد قال الشافعي: (إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جزاهم الله خيراً، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل) (١: ص٢٥٤).

كما أكد لابد من أن يقترن العلم بالعمل والتطبيق، أي يترجم إلى أخلاقية علمية وعملية وسلوك حياتي، مستنداً إلى قول رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع). فيجب أن يكون العلم مجسداً لمواقف عقائدية وأخلاقية، فهو ميزان المؤمن الذي يعرف من خلاله الحلال والحرام، ليفوز بالسعادة التي ما بعدها سعادة، ويعد الشافعي التعليم عملية مكتسبة يتقدم إليها الإنسان باستغلال ما وهبه الله من قدرات عقلية، وطاقات ذهنية، وعليه فان المنزلة الاجتماعية منوطة بالعلم.

وتحدث الشافعي عن الحضارة بوصفه بأنها مجاميع من التراكم التراثي فيها من الحيوية والتنامي ما يناظر المعنويات والتقاليد والعادات والثقافة والخبرات والقيم والمثل العليا.

وكان منهجه في التدريس هو تحمل المسؤولية بنقل التراث الفكري والحضاري للأجيال اللاحقة مراعياً بذلك قدرات وميول الطالب بما يتفق مع التنشئة المنهجية السليمة.

وقد بصر الشافعي عن قضايا منهجية تخص الإعداد التربوي والتنشئة التي ترتكز على أسس ذات نزعة علمية متناغمة مع ظروف المجتمع وحاجاته ومتطلباته. وبذلك حدد ستة عناصر للعملية التعليمية الصحيحة في إقامة منهجية التدريس وهي:

(الذكاء، الحرص، الاجتهاد، البلغة، صحبة الأستاذ، الزمن) وهي الآن من الأمور الأساسية التي أكد عليها علم النفس التربوي الحديث.

فالذكاء: هو الاستعداد الذهني أو القدرات العقلية في استيعاب وتعليل وتحليل معطيات العلم، وبه يتفوق الطالب ويختصر الزمن في الحصول على العلم من مناهل العرفان.

أما بخصوص الحرص: فهو الجدية في التوجه التربوي والتعليمي، والاهتمام بكل ما ييسر العملية التربوية من تهيئة الظروف والبحث عن الوسائل التي بها يستطيع الإنسان أن يحصل على ما يريد من المعرفة والثقافة.

في حين كان ينظر إلى الاجتهاد: بأنه شكل من أشكال الممارسة العملية المتنامية في ميادين المطالعة والمناقشة والدأب في مضامير التعليل والتحليل، وربط الأسباب بالمسببات لاستنباط الخلاصات والكشف عن ما يراه أو يتوصل إليه الإنسان من الحقائق، وعدم القناعة بالنزر اليسير، أو الاكتفاء بالمعطيات الهامشية، فعملية التعلم بأمس الحاجة إلى المثابرة الجادة، ومجاهدة النفس، والصمود أمام عقبات التعليم، فيما يخص تهيئة الجو النفسي الملائم ووسائل التعليم الجيد، والاجتهاد يعمل على جنباً إلى جنب مع الذكاء حيث يكمل احدهما الآخر في مهمتهما الوظيفية.

أن صحبة الأستاذ: لا تقل أهمية عن غيرها إن لم تكن أكثر أهمية وهي تعني تفاعلاً بين الطالب والمدرس من خلال تجارب الحياة في الميادين الثقافية وهي أشبه بظاهرة الحلول والتنافذ والمستفيد الأول هو الطالب، حيث يكتسب خلاصات التجارب مستعيناً بجهود أستاذه مختصراً للزمن وحصوله على المعرفة الحقيقة، وبذلك يضفي الأستاذ على طلابه ظلال ذوقه وانعكاسات رؤاه، أما بخصوص تعدد الأساتذة فيفتح أمام الطلبة سبل عديدة للمعرفة والخوض في مناقشات والحصول على الرأي الصائب والصحيح وبذلك تنمو شخصيته ويستقل فكره بعيداً عن التقليد والاستنساخ غير الواعي، فالثقافة لا تزدهر إلا بظل التجديد والابتكار.

أما الزمن: فقد نظر إليه الشافعي نظرة خاصة كونه عنصر مهم في العملية التربوية، ففي زماننا يقسم التدريس إلى مراحل زمنه مشابه بالدرج الذي يرتقيه الطالب وصولاً إلى أعلى المراتب، وفي حالة التأخير فان مواكبة الزمن في عملية التحصيل العلمي، فن سلسلة الثقافة تتقطع به فيسقط قبل أن يصل إلى أعلى المستوى المطلوب، فالمجاهدة والصبر وكسب الزمن عوامل مساعدة في تذليل العقاب وتبسيط الصعاب، والتقسيم المرحلي للدراسة يترك بينها فسحاً أو محطات يقف الطالب عندها ليختبر حصيلته ويستعيد ما استفاد أو ما افتقد بفعل النسيان وبذلك يتفادى ما فاته ويعمل على ربط حصيلة الماضي بالمستقبل.

والعلم صعب طويل سلمه فلا بد من الصبر والمجالدة المخلصة، فما صعب مناله وعز مطلبه كان أثمن قيمة وأجدر بالحفاظ والحرص، وان يترفع المتعلم من آفة الغرور حيث قال: (ما زال العالم عالماً ما طلب العلم، فان ظن انه علم فقد جهل).

لقد كان طالب العلم في ذلك الزمان يعاني من الفقر والعوز، لان طلب العلم يعيق الإنسان من القيام بالمهام الأسرية وبذلك عانا الشافعي من الفقر الشيء الكثير لكنه كافح وجاهد كفاحاً مريراً ومجاهدة شاقة في سبيل حوزة المكان العلمي المرموق.

وهناك أقوال للشافعي في المجال العلمي منها:

. طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

. ما تقرب إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

. زينة العلم الورع والحلم.

. زينة العلماء التوفيق، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس.

. من لا يحب العلم لا خير فيه، ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

. المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن.

. ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع.

. وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي منه حرف.

إن الشافعي وضع منهاجاً علمياً في البحث وطلب العلم والحصول على الثقافة والمعرفة للدارس العادي أو المتخصص وبذلك وضع الأسس العلمية للمنهجية العلمية للبحث الموضوعي ومناهجه وبذلك قد سبق الغرب وباحثيهم في وضع أصول البحث وكذلك سبق علماء النفس التربوي في تنظير وتقنين أساليب المناهج التربوية والنفسية الحديثة.

كان الشافعي متميزاً بكتابة النثر الفني، فقد عده المفكرون يشكل مدرسة في النثر العربي الفني، حيث يمتاز بالبلاغة المطبوعة والمتانة في التراكيب والحبكة اللغوية، وقد شهد له اللغويين بذلك، فكانت عبارته عذبة بليغة وهذا ما أخذه عن فصحاء العرب في البادية (١٣:ص١٤٥).

وتعد المناظرة بمثابة جذور أعانت رواد القصة العربية والمسرحية المعاصرة في فن إقامة الحوار وإدارته.

الترحال بحثاً عن العلم:

لقد أكدت الديانات السماوية أهمية العلم والبحث عن الحقيقة فالدين الإسلامي أكد على أهمية العلم فالحديث الشريف: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة).

ولذلك تجّول الشافعي في بلدان كثيرة بحثاً عن العلم والعلماء الذين يرغب أن يدرس على أيدهم وليس التعرف على الجوانب الجغرافية لهذه البلدان ولكنه كان يتعرف ويدرس أحوال الناس وعاداتهم وطباعهم، علاوة على انتشار مذهبية الفقهي في أرجاء واسعة من البلاد العربية. ولذلك أكد الإسلام على السفر بحثاً عن العلم وجعل للمسافر ثواباً مع ما يتناسب مع نواياه المعقودة، فالهجرة من الاضطهاد ونوع من أنواع الجهاد وهجرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) عبرة على ذلك، وقد جاء في القرآن الكريم {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا} (النساء/٩٧).

وكذلك تعد فريضة الحج نوعاً من الهجرة في سبيل الله {يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (الحج/٢٧).

علاوة على ذلك كان التجار ورجال البريد والجباية ممن كثرت أسفارهم، فقد انتقل الشافعي بين الشام ومكة وهو في بداية عمره وخرج إلى البادية لتفصح لسانه ويتعرف على عادات وتقاليد وقيم تلك القبائل، ثم سافر إلى مكة والمدينة لطلب العلم، ثم اليمن لكسب العيش والعمل فيه وبذلك استفاد من صلة الحاكم بالناس وصلة الناس بعضهم ببعض الأمر الذي أعانه على الإصابة في فتاواه، كما كان متميز بالفراسة وعرف عنها الشيء الكثير، ثم سفره إلى بغداد وبلاد فارس ومصر.

كان هدفه من السفر والترحال البحث عن التربة الخصبة لبذور العقيدة وهي المكان الأصلح لنماء المبادئ وتطبيقها وانتشارها {فَفِرُّوا إلى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الذاريات/٥٠).

فقد كان يصاحب العصامعة فتكاد لا تفارقه، وقيل له يوماً (انك تدمن إمساك العصى) قال: (لا اذكر أني مسافر).

ولذلك عدّ السكون هو فساد للطموح والمكوث دون التململ والاستقرار دون الأسفار، وبذلك الفساد يستحيل الجديد إلى قديم والقديم رثا، إذ يفقد العلم طلاوته ويضمر توقد المعرفة ووميضها.

فالطالب يجب أن يبحث عن منابع المعرفة ويصاحب العلماء على اختلاف مشاربهم وتفاوت حظوظهم من العلم، وتنوع ميولهم، وعلى تباعد بلدانهم. فيصور الشافعي صورة منطقية عن السفر والبحث عن العلم أو الرزق. فيقول: (فالأسود لم تحض بفريستها لولا مفارقة العرين، والسهم لم يصب لولا مفارقة القوس، والشمس لولا حركتها لملها الناس).

فالتغرب عن الأوطان فيه طلب العلا والذي هو ثمرة عناصره متعددة، فالأطباء الآن في الوقت الحاضر ينصحون مرضاهم المصابون بالأمراض النفسية بتغيير الجو والسياحة والاستجمام والتنزه والتمتع، وبذلك تضمحل مضاعفات الكآبة وتستحم النفس فتزيل عنها ما علق بها من أدران، وينجلي الاحتقان النفسي وتفتر التوترات العصبية.

حقوق الإنسان:

لقد كان العلماء والشعراء والفلاسفة والمفكرين ينقسمون إلى قسمين: القسم الأول هم المجموعة التي تسمى طبقة البلاط وهم الذين يؤكدون على المضامين في صيغها الفكرية ومعطياتها المنطقية لنيل الجائزة من الخليفة وبذلك يعدون الواجهة الإعلامية للترويج الدعائي والكسب السياسي من خلال التأكيد على الإصلاح الاجتماعي كما يراه الحكام والأمراء أنفسهم.

في حين كان القسم الثاني من هؤلاء المفكرين والشعراء والذي يعد الشافعي احدهم فهم لم يؤكدوا على المضامين بوازع من موقف دعائي أو سياسي في مضامينه موقفاً فكرياً وعقائدياً، ولطالما حاول تجنب التزلف والمداهنة ولطالما ترفع عن عتبات الملوك والأمراء.

كان يتكلم بضمير الفرد والجماعة مطالباً الخلاص إلى الفضل من العلاقات الإنسانية والتفاعل الاجتماعي الخير.

وبما أن الفرد سليل المجتمع وابنه الشرعي، فلابد من أن يترصد التفات الجمهور إليه واستقطاب عينات متنوعة تمتد إلى أوسع مساحة جماهيرية.

فقد كان الشافعي ينظر إلى الشعر في ذلك الوقت بأنه (مرآة عصره) تجسدت على صفحاته ملامح الحياة بأبعادها الفكرية والسياسية والاجتماعية والتاريخية، وهي صور لحروبهم وانتصاراتهم واستبسالهم وتضحياتهم وهو بذلك جسد فكر الأمة وتراثها وحضارتها.

فقد كان الشافعي أنموذجاً لشخصيات تؤمن برسالة الأدب والشعر، وهو في الوقت نفسه صاحب المدرسة الفقهية، فشعره منطلق من المفهوم الإسلامي لنظرية الأدب وهو سلاحه الذي يشهره في وجه الآفات الفكرية لتقويم الانحلال الخلقي والتداعي الاجتماعي وفي مناهضة الفساد، فشعره يحمل فيضاً سامياً من النبل المستمد من تمجيد الخلاق الإسلامية.

لقد أكد الشافعي على احترام الجار وتقديم كل المساعدة له ولعائلته في حالة الضيق والوسع، وان يصون الإخوان حق إخوانهم في الدين وهذا ما دعت إليه الرسالات السماوية وقد يكون الجار اقرب من الإخوان في أمور كثيرة كالشدائد والأحزان والأفراح، كان رحوماً على الفقراء من الناس يقدم ما بين يديه لهم لمساعدتهم.

عزة النفس:

لقد كان الشافعي عزيز النفس أبي لا يرضى أن يمسه الناس بقول سوء فقد كان متمسكاً بتعاليم الدين الإسلامي، لا يطلب الرزق إلا من الله سبحانه وتعالى ولا يقف على أبواب الملوك والأمراء من اجل الحصول على الجائزة والمال ولا يرغب أن يذكر اسمه على عمل خير قدمه، فانه لا يرغب أن يحصل على الثواب إلا من خالقه، فقد كان يصور وقوف الناس الأحرار أمام القصور الأمراء والأغنياء ذلاً وتحقير لشخصية الإنسان في حين من يرغب سماعي أو اخذ ما لدي من علوم عليه المجيء لي ولست أنا من يذهب وهذه من سماته المفضلة، وعليك أيها الإنسان أن لا تحزن ويضيق صدرك عندما يجافيك خليل أو يميل بك الدهر، فالصبر واجب على كل فرد والصمود أمام النائبات من صفات المسلم وان هذه المصائب والكروب لابد أن تزول يوماً، وعليك أن تختار الأصدقاء بعد تجربتهم واختبارهم فقد يكونوا أكثر في أيام الأفراح والعيش الرغيد ولكن قي يتناقصون ويقل عددهم بل لا تجد منهم أحداً أيام النائبات والأحزان والشدائد.

إن الوقوف على أبواب الملوك بكثرة قد يسبب لك المشاكل فان غضبوا قد يطالك الجور والعذاب منهم، وان أرضيتهم باستمرار فقد يملوا هذا الاتجاه، فالابتعاد عنهم كرماً للنفس والاقتراب منهم ذلاً للنفس، وكن قنوعاً أيها الإنسان، فالقناعة كنز عظيم يمتلكه الإنسان في الدنيا والآخرة، أما الطمع فانه يطيح بقلب الإنسان ويصيبه بالعلل والمهانة، ولذلك أكد على معاشرة الناس الطيبين، ومن أقواله في هذا المجال:

. عاشر كرام الناس تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم.

. سياسة الناس اشد من سياسة الدواب.

. من نمّ لك نمّ عليك.

. لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مرورته أو مودته.

. من كتم سره كانت الخيرة في يده.

. من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

. رضا الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة من سبيل، فعليك بما ينفعك فألزمه.

. الشفاعات زكاة المروءات.

. التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

. من علامة الصدق في إخوة أخيه أن يقبل علله، ويسدد خلله، ويغفر زلله.

. التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام.

العلاقات الاجتماعية:

كانت علاقات الشافعي الاجتماعية واسعة بالناس الذين يعيشون من حوله على اختلاف مشاربهم وتباين طبائعهم وتفاوت مستوياتهم وطبقاتهم، لقد درس أحوال الرواة وأصحاب السند ومواقف الناس منهم ومدى وثوق العلماء بهم، وذلك من خلال جمعه وتصنيفه الأحاديث النبوية الشريفة.

لقد عرف الشافعي بالرزانة والاتزان في حدود الظهور بما يليق بمقام كمقامه، في إطار من الحكمة والموعظة الحسنة، فهو قد استوعب الدرس القرآني وحاول التحلي به، فهو يظهر المحبة والبشر للناس فهو يحب الأصدقاء والصداقة وهو رجل اجتماعي فقد حدد علاقات الأفراد مع بعضهم البعض في إطار المجتمع، وجعل هناك نهجاً اجتماعياً ينظم علاقات الناس والأفراد، وقد وضع حدوداً للأصدقاء وسمات وصفات يحددها في اختيار الصديق وكذلك قسم منهم لابد من الاحتراس منهم بل تحديد العلاقات الاجتماعية معهم.

فمن سمات الأصدقاء أن يكون غضيض الطرف عن العثرات ومن يوافقه في المشارب والآراء إزاء الأمور ويحفظه في حياته ومماته، فإذا وجد مثل هذا استحق أن يقاسمه حسناته وبهذا جعل للصداقة حقوقاً كريمة خاصة وان الأخلاق الإسلامية كانت قد أرست مفاهيم الأخوة في الله، وما مؤاخاة المهاجرين والأنصار إلا ضرباً متقدماً في المثالية التي وضعها الإسلام على ارض الواقع.

فقد كان يرثي الأصدقاء ويبكيهم ببكاء الأصدقاء والأصحاب ورثاء الإخلاء والأصدقاء، حيث شغوف الحزن الصادق يتغلغل إلى أعماق النفس في كثير من تلك المراثي، فما كل صديق يخلص لعيش تقادم عهده، أو يكتم سراً خافياً، ثم ما عليك إلا أن تقرأ على الدنيا السلام أن هي خلت من الصديق الصادق الصدوق.

وقد كان مسامح يقبل الاعتذار ويراه دية الذنب وعليه فهو يقبله ويسامح من أسى عليه، ولا يرى في ذلك غضاضة أو ذلاً أو عاراً فهي من مكارم الأخلاق والشمائل تساهم في طرح مادة ثرة ثمينة أمام المربين والمعلمين لينشئوا عليها أبنائهم وتلاميذهم (١٦:ص١٠٤).

والصداقة قدسية قد تسمو على بعض الدرجات القريبة من القرابة فقد قيل في أمثال العرب: (رب أخ لم تلده لك أمك)، وقد يكتشف الإنسان بعد مرور زمن طويل من المعايشة والائتمان على الأسرار الخاصة أن ثقته لم تكن في محلها، فعليك أن تختبر الصديق.

والصداقة هي ضرورة اجتماعية تعتمد سلماً تصاعدياً، وهي فن من فنون المباشرة، فالإنسان الذي يعيش في وسط الناس ولكنه يشعر بالوحدة والانعزال فهذا يبعث في النفس القلق وعدم الاطمئنان، فعليه أن يدرس الأسباب وان يتعرف عليها وكلما كانت الصداقة متكافئة في النوازع والمشارب والآراء والرغبات كانت الصداقة أطول عمراً وهذا ما يؤكده صحة المقولة: (القرين بالقرين يقتدي).

والصديق لابد أن يكون ذا موقف واضح وشخصية ثابتة غير متذبذبة ولا متلون لان الصداقة الحقة مبدأ مرتقاه صعب ونبيل.

شعره:

لقد كان موقف القرآن الكريم والرسول الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) من الشعر واضح وصريح والنظرية الإسلامية اعتمدت مكارم الأخلاق التي يتضمنها الشعر مقياساً رئيساً في التقويم كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ } (الشعراء/٢٢٥). وقول الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم): (إن من الشعر لحكمة)، والشعر يعد ضرباً من تربية الأبناء وتأديبهم، فقد كرّم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) كعب ابن زهير ببرديه عندما ألقى قصيدته اللامية، فالشعر جائز والنظرية الإسلامية تتسامح معه طالما لم يخرج عن الفقه والحشمة إلى الابتذال والانحلال.

ويعد الشعر الجاهلي الذي جمعه اللغويون والنحاة للاستشهاد به على سلامة اللغة، بعد إن ظهر اللحن باختلاط العرب مع الأعاجم بعد الفتح الإسلامي.

أن طبيعة النفس البشرية وطبيعة الحياة فيها الخير الشر كقوله تعالى: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس/٨).

والأديب والفنان إنما هما حصيلة تفاعلهما مع المجتمع، فالبيئة والمجتمع والظروف تصنع من الإنسان فناناً ثم تقبل أو ترفض بضاعته بعد أن تستوي على سوقها واللغة أداة اجتماعية وإنسانية، ولذلك عد الأدب مرآة عصره، والشاعر لسان قومه، والشعر سجل حياة الأمة.

ولذلك يعد الشافعي ظاهرة منفردة بين اتجاهين، اتجاه طبقة شعراء البلاط والمثقفين أو إبراز القدرة الإبداعية والقيم الجمالية فيه، فمنهم من يرغب بالحصول على جائزة الملك أو الخليفة أو الترويج الدعائي والكسب السياسي وصولاً إلى الإصلاحات الاجتماعية، لكن الشافعي كان صوته مميزاً تجنب التزلف والمداهنة وترفع عن عتبات الملوك والأمراء، فقد كان بليغاً نتيجة لأصالة المنشأ العربي وعراقة البيئة اللغوية واستقاؤه من مناهل القرآن والحديث وحفظه للجيد منه.

كان الشافعي عفيف النفس معتدل السلوك، متزن أخلاقياً بعيداً عن اهتمامه بالمنافع الشخصية والفردية، زاهداً مستغني عن الملذات، ذي همة عالية فقد كان ينظر إلى المال ليس غاية بذاته وحرصه على النظافة والعناية بالمظهر لباساً وزينة على أن لا يخرج ذلك إلى الإسراف.

كان يؤمن بأن رأس الغنى هو القناعة، ولكن إذا كانت القناعة تعني الترفع عن سؤال الناس فكيف يوقف الشافعي بينها وبين موارد الرزق والسعي من اجله ؟ فقد نلاحظ بان المفكرين وقادة العلم انقسموا إلى قسمين، قسماً منهم اتخذ من العمل الحر بكل أنواعه رزقاً أمثال الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، في حين إن القسم الآخر الذي اعد العمل والبحث عن الرزق شيء غير مهم وخصوصاً لرجال الدين

والعلماء وان القناعة والرزق تأتي من الله سبحانه وتعالى وأمثال ذلك الإمام الغزالي، لكن الشافعي كان برغم إيمانه القاطع بالرزق لكنه كان يسعى وراء الرزق، وقد بينا سابقاً بأنه منذ نعومة أظافره محروماً من الرعاية والأبوية، يتيماً، فقيراً، ولم يطرق الأبواب بحثاً عن الأموال، فقد كان قانعاً بحياة التقشف الذي وصل به الحرمان إلى (أفلست من دهري ثلاث افلاسات، فكنت أبيع قليلي وكثيري، وحلى ابنتي وزوجتي، ولم أراهن قط) (٥: ص٧٧).

لقد أفنى الشافعي حياته الطويلة حلاً وارتحالاً، وتعرفه على أصناف متباينة من الناس، والتعرف على نفسياتهم وتفهم نوازعهم، خير الدنيا بحلوها ومرها، بعذبها وعذابها، وقد خلص إلى حقيقة وهي {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (الحديد/٢٠).

كان يدعوا إلى تحمل الجوع، لان الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة، في حين إن الصيام يتيح للمؤمن من تدريب على مجاهدة النفس ومغالبة الغرائز والشهوات وتشذيب الطباع والصحة بنوعيها البدني والنفسي.

كان يسهر ليله ويقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسم منه إلى الدرس وقسم للعبادة وقسم منه إلى للنوم، كان يحب السفر والترحال ويرغب في الفتوة والفروسية ولا يرغب في البدانة والسمنة، وكان الصمت ينتابه عند الخصام مكرمة يتحلى بها فانه يرى أن الجواب في مثل هذه الحال مفتاح لباب الشر، وان الصمت والإعراض عن الأحمق هو شرف وإصلاح وصون للكرامة والعرض إيماناً بقوله {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف/١٩٩).

كان يقدم النصيحة للزوجة ويطالب بحسن معاشرتها، فقد كانت أسرته مثالاً للأسرة السعيدة والتي كانت المودة والرحمة والسعادة منهاجها، والصراحة التفاهم من مبادئها، فقد أوصى زوجته أن لا تعارضه في القول عند سورة الغضب، كان يستعين في التعرف على سرائر الآخرين بعلم الفراسة وذلك حين عمل في اليمن وكان هذا العلم معمولاً عليه وتفوق به إيماناً منه بقول الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): (اتقوا فراسة المؤمن، فانه يرى بنور الله) (صحيح الترمذي/تفسير سورة ١٥/٦).

وبما إني قد تناولت الشافعي من وجهة نظر تربوية وقد بينت الكثير من مؤلفاته والموضوعات التي درسها وكتب عنها بإسهاب وخصوصاً شعره الموزون والذي تطرق فيه عن موضوعات عديدة فقد اخترت بعض الأبيات التي وجدتها ذات مساس مباشر في حياة الإنسان في هذه الفترة راجياً الإفادة منها لأنها وتطبيقها عملياً في حياتنا اليومية. رحم الله الشافعي.

كان شاعراً متمكناً يجيد تصوير الحوادث ولديه الصورة الشعرية الواضحة علاوة على انه مؤمناً إيماناً قاطعاً بالله سبحانه وتعالى وراضياً بقضاء الله وقدره فيقول:

دعِ الأيـــامَ تفعـــلْ مـــا تشـــاءُ وطـــب نفســـاً إذا حكـــم القضـــاءُ
ولا تجـــزع لحادثـــة الليـــالي فمـــا لحـــوادث الـــدنيا بقـــاءُ
وكـــن رجـــلاً علـــى الأهـــوال جلـــداً وشـــيمتك الســـماحة والوفـــاءُ
إذا مـــا كنـــت ذا قلـــب قنـــوع فأنـــت ومالـــك الـــدنيا ســـواءُ

كما انه كان يؤمن بالحظ فيقول:

تمـــوت الأســـود فـــي الغابـــات جوعـــاً ولحـــم الضـــأن تأكلـــه الكـــلابُ
وعبـــد قـــد ينـــام علـــى حريـــر وذو نســـب مفارشـــه التـــرابُ

وان احترام الناس وعدم الغرور في هذه الدنيا تعد من سماته وصفاته فيقول:

وأحســـن إلـــى الأحـــرار تملـــك رقـــابهم فخيـــر تجـــارات الكـــرام اكتســـابها
ولا تمشـــين فـــي منكـــب الأرض فـــاخراً فعمـــا قليـــل يحتويـــك ترابهـــا

كان ينظر إلى الناس السفهاء نظرة المسامحة لكونه حسن الأخلاق ولا يريد أن يرد على من تكلم عليه سوءاً أو اسمعه كلمات السب فيقول:

تمـــوت الأســـود فـــي الغابـــات جوعـــاً ولحـــم الضـــأن تأكلـــه الكـــلابُ
وعبـــد قـــد ينـــام علـــى حريـــر وذو نســـب مفارشـــه التـــرابُ
إذا نطـــق الســـفيه فـــلا تجبـــه فخيـــر مـــن إجابتـــه الســـكوتُ
فـــان كلمتـــه فرجـــت عنـــه وان خليتـــه كمـــداً يمـــوت

كان ينظر إلى الفقيه أو الرئيس أو الرجل الغني بمنظار قد يختلف عن منظار الآخرين فهو يقول:

إن الفقيـــه هـــو الفقيـــه بفعلـــه لـــيس الفقيـــه بنطقـــه ومقالـــه
وكـــذا الـــرئيس بخلقـــه لـــيس الـــرئيس بقومـــه ورجالـــه
وكـــذا الغنـــي هـــو الغنـــي بحالـــه لـــيس الغنـــي بملكـــه وبمالـــه

(٦:ص٣٠٥).

كما كتب على ما يزين النفس والصبر على النائبات واختيار الأصدقاء حيث يقول:

صـــن الـــنفس واحملهـــا علـــى مـــا يزينهـــا تعـــش ســـالماً والقـــول فيـــك جميـــل
ولا تـــولين النـــاس إلا تجمـــلاً نبـــا بـــك دهـــر أو جفـــاك خليـــل
وان ضـــاق رزق اليـــوم فاصـــبر إلـــى غـــد عســـى نكبـــات الـــدهر عنـــك تـــزول
ولا خيـــر فـــي ود امـــرئ متلـــون إذا الـــريح مالـــت، مـــال حيـــث تميـــل
ومـــا أكثـــر الإخـــوان حـــين تعـــدهم ولكـــنهم فـــي النائبـــات قليـــل

كما أوصى الناس بالتحدث مع الآخرين بالحسنى وابعد لسانك عن كلمات السوء التي تجرح مسامع الآخرين حيث يقول:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك انه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الأقران

وكذلك (١١:ص٨٠.٣٠).

وان كثرت عيوبك في الدنيا وسرك أن يكون لها غطاء
إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

الإيمان بالقضاء والقدر:

ولرب نازلة يضيق لها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وكذلك

وما كنت راض من زماني بما ترى ولكنني راض بما حكم الدهر
فان كانت الأيام خانت عهودنا فاني بها راض ولكنها قهر

آداب النصح

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فان النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وان خالفني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

شروط تحصيل العلم

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأبنيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

وكذلك

رأيت العلم صاحبه كريماً ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن يعظم أمره القوم الكرام
فلولا العلم ما سعدت رجال ولا عرف الحلال ولا الحرام

(١١:ص٥٥-٩٠).

استنتاجات البحث:

لقد توصل الباحث من خلال دراسته للشافعي فقيهاً ولغوياً وشاعراً ومفتياً ومعلماً وحافظاً للقرآن الكريم وراوياً للحديث النبوي الشريف، أن هذا الفقيه كان يتمتع بسرعة فائقة في الحفظ فمجرد سماع العلوم من الأستاذ فقد حفظها ولذلك حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنوات، وكان حاد الذكاء فطن متسامح لا يخطأ في حقوق الناس ولا يحاول النيل من احد حتى في أثناء المناظرات التي تحدث بينه وبين من يقف أمامه. ومن هذه الاستنتاجات:

١. كان شغوفاً في تعلم العلو الفقهية والتي لها مساس مباشر بالعقيدة الإسلامية.

٢. كان حريصاً ومؤمناً إيماناً قاطعاً بالقضاء والقدر.

٣. كانت أحكامه وفتاواه مستندة ومستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٤. يحب الترحال والتنقل لأنه يعتقد جازماً فيه فائدة علمية وتبادل الخبرات والتصرف على شعوب العالم ودراسة أحوالهم ومعتقداتهم وقيمهم وعاداتهم الاجتماعية.

٥. كان شاعراً، يقول الشعر في المناسبات ولكنه لا يمدح أحدا من الأمراء والخلفاء.

٦. محباً للعلم والعلماء، داعياً أن ينفذ العلم عملاً (فليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع).

٧. أحب اللغة العربية واعتبرها أم اللغات ومن لم يعرف العربية ويتحدث بها فانه لا يعرف المثير من أمور الدين.

٨. أكد على كيفية اختيار الأصدقاء، وكان يثمن العلاقات الاجتماعية بين الناس وان يعرف كل فرد حقوقه وواجباته.

٩. عزيز النفس أبياً لا يرغب في الوقوف أمام قصور الملوك والأمراء ولا يقبل الهدايا والمنح.

١٠. كان فارساً (أي لديه المعرفة بالفراسة) (اتق فراسة المؤمن، فانه ينظر بنور الله).

التوصيات:

من خلال النتائج التي توصل إليها الباحث في بحثه يوصي بما يأتي:

١. الدقة والموضوعية في دراسة النصوص الشعرية التي قالها في مناسبات معينة.

٢. دراسة الشافعي فقهياً ولغوياً.

المقترحات:

١. إجراء دراسة متخصصة لشعر الشافعي ومضامينه التربوية.

٢. إجراء دراسة متخصصة في مجالات الفقه واللغة ونسخ القرآن الكريم.

٣. القيام بدراسة متخصصة عن مناهج البحث التربوية التي استخدمها الشافعي في أثناء تدريسه لحلقاته الدراسية.

المصادر

* القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، البداية والنهاية ج١٠، كردستان، مصر، القاهرة، ص٢٥٤.

٢. أبو زهرة، محمد، الشافعي، الفتح المبين، بيروت، لبنان، ط٢، ص.١٧

٣. أبو زهرة، محمد، الشافعي حياته وعصره وآراؤه، م/وهبه، مصر، ١٩٤٥ص.٨٦

٤. إدريس، محمد، الشافعي، أحمد محمد شاكر، ط١، الرسالة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٤٠، ص٢٥٠.

٥. الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ص١٢٨، ب–ت.

٦. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، ط١، مكتبة الخنجي، المكتبة العربية، القاهرة، بغداد، دار الكتاب العربي، .١٩٣١

٧. الجندي، عبد الحليم، الإمام الشافعي، ناصر السنة وواضع الأصول، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧.

٨.الحموي، ياقوت، أبو عبد الله، معجم الأدباء، دار المأمون، مكتبة القراء والثقافة الأدبية.

٩. الخطيب، عبد الكريم، القضاء والقدر بين الفلسفة والدين، دار الفكر العربي، ص١٠٩.

١٠. الرازي، أبو محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم، آداب الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص١٠١، ٢٠٠٣.

١١. الزغبي، محمد عفيف، ديوان الإمام الشافعي، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، العراق، مطبعة أوفيست الوسام، ط٤، ١٩٧١.

١٢. الشافعي، إبراهيم محمد، الفكر النفسي وتوجيهه للعمل التربوي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

١٣. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق، أحمد محمد شاكر، ط١١، م، الحلبي، مصر، ١٩٤٠.

١٤. الشرباصي، أحمد، الأئمة الأربعة، دار الجيل، بيروت، ص١٤١.

١٥. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنمل، حجازي، القاهرة، ١٩٤٨

١٦. صالح، حكمت، دراسة فنية في شعر الشافعي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

١٧. العسقلاني، شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر، تهذيب التهذيب، دار الفكر/ط١، ١٩٨٤.

١٨. المطلبي، عبد الجبار، مواقف في الأدب والنقد، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠.

١٩. الذهبي، شمس الدين، محمد بن احمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٦.